



دار الفكر الإسلامي

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الخامس / ٢٠١٢م

الإصلاح الاجتماعي في الإسلام

دراسة مقارنة بين مفهوم الإمام أبي حامد الغزالي وابن عاشور

د. حسن علي الشايعي

الاستاذ المشارك بجامعة إفريقيا العالمية - عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

ملخص :

يهدف هذا البحث إلى إبراز جانب الإصلاح الاجتماعي في الإسلام وبيان ما كان عليه المجتمع في العهد النبوي الذي أسسه النبي ﷺ على معاني الهجرة والنصرة لا على أساس القبيلة.

بعد نموذج العهد النبوي يعرض البحث لرأي اثنين من علماء المسلمين في الإصلاح الاجتماعي، أولهما الإمام أبو حامد الغزالي، وقد بنى منهجه على إصلاح النفس وتركيتها. ويعتبر كتاب إحياء علوم الدين أساس منهجه ويعتبر الغزالي العلماء أساس عملية الإصلاح في المجتمع.

أما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي عاش في القرن التاسع عشر فيقوم منهجه في الإصلاح الاجتماعي على إصلاح الفرد والمجتمع كما بين اهتمام الإسلام بالمرأة وأكد دورها في الإصلاح الاجتماعي.

Abstract:

This research aims at highlighting the aspect of social reform in Islam, showing the kind of society that the Prophet -pbuh- established on the concepts of hijra and consolidation not on a tribal basis.

Then the study reviews two famous scholars and their views as regards social reform. The first one is Imam Al-ghazali, whose concept is based on the sole's reform, and we find this in his book Ehiaa Uloum Aldeen.

The second scholar is Muhammad Al-Tahir Ibn Ashour, who based his approach of social reform on the acquisition of Knowledge and on the reform of the individual and the society, and showed Islam's attention to the woman, and her role in social reform.

المقدمة :

يهدف هذا البحث إلى إبراز جانب الإصلاح الاجتماعي في الإسلام وبيان ما كان عليه المجتمع بعد ظهور دعوة الإسلام من حيث بناء مجتمع فاضل سادت فيه روح الإخاء والمودة والإيثار ، وما زالت آثار ذلك الإصلاح الاجتماعي باقية في مجتمعات المسلمين إلى يومنا هذا ولكنها في حاجة لمزيد من الرعاية وإعادة البعث والإصلاح حتي تعود حية ويعود المجتمع الإسلامي نابضاً بالحياة والتكافل والتآزر كمثل الجسد الواحد وقد جاءت محاور البحث من خلال إبراز دور العلماء في الماضي والحاضر في الإصلاح الاجتماعي مهتدياً ومتأسياً بهدي النبي ﷺ في الإصلاح الاجتماعي .

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة محاور وخاتمة .

المقدمة :

الإصلاح في اللغة : ” الإصلاح “ ضد الفساد وهو صلح بالكسر وصالح وصلاح واصلحه ضد أفسده.^(١)

وصلحت حال فلان وهو علي حال صالحة ، وأتتني صالحة من فلان ولاتعد صالحاته وحسناته ، قال الخطيب :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتيني
وصلح الأمر وأصلحته وأصلحت النعل ، وأصلح الله تعالى الأمير وسعي في إصلاح ذات البين.^(٢)

في الاصطلاح :

وردت معاني الإصلاح في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى علي لسان الأنبياء ﴿ إِن أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [هود : ٨٨] . وجاءت بمعني الأحياء في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

(١) القاموس المحيط ٨٣٩/٣ دار الفكر / ط الثالثة .

(٢) اساس البلاغة الزمخشري ٢٠/٢٣ . الهيئة العامة لقصور الثقافة مايو ٢٠٠٣ م .

وقد ورد معنى الإصلاح والتجديد في حديث رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال ” إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها “^(٣) ولعل ذلك مقصود رسول الله ﷺ حين يطلب اصلاح الذات وتنقية القلب وتزكية النفس من رواسب طول الأمد وتراخي الرباط الإيماني في قوله ” جددوا إيمانكم ، قيل يارسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال ” أكثروا من قول لا إله إلا الله “^(٤).

أسس الإصلاح الاجتماعي في الإسلام :

(١) إن معرفة الله سبحانه وتعالى هي الاساس الاول للإصلاح فمن عرف الله عرف كل شيء ومن جهل الله فقد جهل كل شيء ، وصلاح المجتمعات مرتبط بتوحيد الله وتعدد الآلهة والشرك مرتبط بالنكد والفساد والضلال.

يظهر المعنى الأول في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦]. وكما برزت هذه العقيدة في توحيد الله وإخلاص العبادة له ظهرت كذلك في إصلاح حال الفرد والمجتمع ، إذ أن الدين من أقوى عوامل إصلاح المجتمع ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٤٣) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٢-٤٣].

اي صدها عن حصول العلم النافع عبادتها الشمس فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري واستكمال الحضارة الصحيحة.

(٢) المساواة بين البشر: يقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣].

وقول النبي ﷺ في حجة الوداع ” أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم من آدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوي “.

^(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم برقم ٣٧٤٠ والحاكم في المستدرک ٥٢٢/٤. قال العلقي في شرح الجامع الصغير إتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح.

^(٤) أخرجه الإمام احمد في مسنده برقم ٨٣٥٣ دار صادر ٣٥٩/٢.

وهكذا جاءت دعوة الإسلام لجميع البشر علي اختلاف اعراقهم ولانسابهم ومكانتهم الاجتماعية فدخل في الإسلام ابوبكر القرشي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارس وكانوا كلهم سواسية لهم من فضل الصحبة والجهاد مما قدمهم علي الكثيرين من أصحاب المال والحسب والنسب ممن كان علي الكفر وحتى الذين دخلوا في الإسلام مؤخرًا سبقهم هؤلاء بسبقهم وجهادهم.

(٣) الإنسان مستخلف علي المال : اختص الله سبحانه وتعالى الإنسان باستخلافه علي الارض يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠].

والإنسان محاسب علي هذا الاستخلاف يوم القيامة فلا يستوي عند الله تعالى الذين يصلحون في الارض ومن يفسدون فيها. والاستخلاف في المال جزء من هذه الخلافة ، فالمال مال الله وقد فرض فيه الزكاة في مصارفها الثمانية وهم الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والسائلين وفي الرقاب وابن السبيل والغارمين وفي سبيل الله ، ومعظم هذه المصارف تعود علي المجتمع لتؤكد التكافل الاجتماعي والإخاء والتراحم في المجتمع.

ومن نتائج هذا الاستخلاف إن الإنسان لا يمتلك المال أمتلاكاً نهائياً وإن للمجتمع فيه حقوقاً سواء كانوا افراداً أو جماعة.

فالأموال ودائع وعوار في أيدي البشر مستخلفين فيها من الله سخرها لهم امتحاناً وابتلاء في حياتهم الدنيا إذ أن المال يمكن استعماله في الإصلاح ويمكن استعماله في الفساد.. ومن نتائج هذا الإستخلاف كذلك أن الشريعة الإسلامية حرمت الربا حيث قال الله تعالى ﴿ وَأَحْلَلْ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥]. بينما أجازته القوانين الوضعية باعتباره صفة تجارية للبيع ، وتعامل معه علماء القانون والعلوم الاجتماعية علي هذا الاساس ، وقد أثبت التاريخ عصمة الوحي الإلهي وبطلان الأحكام الوضعية التي يتوصل إليها البشر بأنفسهم بعيداً عن الوحي ، وبسبب تحريم الربا استمر الاقتصاد الإسلامي لمدة ألف سنة ، دون أن تظهر طبقة فاحشة الغني وآخري فاحشة الفقر ، والنظام الاقتصادي الحديث القائم

علي الربا أنشأ الوضع الاقتصادي الذي أدى في لتوزيع الثروات بطريقة غير عادلة ، وهو عاجز عن حل هذه المعضلة.^(١)

المحور الأول : المنهج النبوي في الإصلاح الاجتماعي :

من الحقائق التاريخية ، أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام ، والمتقضي لهذا التاريخ لا يري ثغرة ولا ثلثة في جهود الإصلاح والتجديد ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق.

ومازال المجددون والمصلحون في العالم الإسلامي يبذلون الجهود في إصلاح الفرد والمجتمع في جوانبه المختلفة ، وذلك مصداقا لحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه ابوهريرة " إن الله يبعث لهذه الامة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " .^(٢)

رسالة النبي محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات وهي للعالمين جميعا فهي غير محدودة في المدي الزماني والمكاني ، وقد أقام النبي ﷺ مجتمعا نموذجا في الجزيرة العربية ، ولكنه يصلح لإصلاح المجتمعات الإنسانية كلها وقد خاطب القرآن الكريم النبي ﷺ فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

ومن عناصر الإصلاح الاجتماعي في العهد النبوي :

(أ) الهجرة :

كانت هجرة النبي ﷺ من مكة إلي المدينة وهي أرض يربطه بها رباط الدين والمناصرة بعد بيعة العقبة الأولى والثانية التي عقدها النبي ﷺ مع الأوس والخزرج . هذه البيعة هي التي مهدت لهجرته ﷺ وقيام دولة الإسلام ، ومن معاني الهجرة أن ما يلقاه الأنبياء والمصلحون من العنت والإضطهاد في بداية دعوتهم وبين عشيرتهم لايدل علي فشلهم ولايقود إلي اليأس فبعد أن بلغ كيد المشركين نهايته وقرروا قتل النبي ﷺ جعل الله له فرجا

^(١) وحيد الدين خان - الإسلام والعصر الحديث - ترجمة ظفر الإسلام خان - دار النفائس بيروت ، الطبعة الاثنية ص ٢٤-١٤٠٦هـ

^(٢) أخرجه ابوداود في كتاب الملاحم برقم ٣٧٤٠ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

ومخرجاً إلى آفاق الفتح والإنتشار بعد الهجرة ، يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠].

وقد كانت الهجرة مرحلة جديدة في حركة الإسلام وبالهجرة انتقل المسلمون من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة ، يقول الله تعالى ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [الأنفال : ٢٦]. ومغزي ذلك أن الدولة أو التمكين مرحلة ضرورية لاكمال عناصر المنهج النبوي ، وقد كان ذلك مشكلاً علي بعض المستشرقين وأصحاب الفكر النصراني لأنهم يرون تعارضاً بين النبوة والقيادة والحكم وذلك مما لحق بالنصرانية من آثار الرهبانية. ولكن هذا غير كائن في الإسلام إذ أن الهجرة وقيام الدولة جزء أصيل من سيرة النبي ﷺ وهو منهج الدين الخاتم الذي تتمازج فيه العقيدة والشريعة وشؤون الحياة الإنسانية كلها في إطار جامع.^(٣)

ولاشك أن ما قام به النبي ﷺ في تلك الحقبة وما تركه للناس كفيل بأن يحمل الرسالة إلى آفاق الأرض وأن يكون ذلك الانتقال متجدداً مع الزمان فلا تزال الرسالة تبلغ الناس وتنتقل في الأجيال والآفاق إلى يومنا هذا.^(٤)

وتمثل السيرة النبوية النموذج التطبيقي العملي للإسلام فهي سيرة مثالية في درجتها بشرية في طبيعتها فهو يبلغ بلسان ولكنه بليغ ويجاهد بصبر ولكنه عظيم ويتعبد الله بطاقة الجسد ولكنه قوي وينفق إنفاقاً من لا يخشى الفقر ويوجه المسلمين ألا يتجاوز انفاقهم الثلث ، وهكذا كانت سيرته مع المدد الغيبي والتأييد الإلهي ، سيرة بشر يشرع للبشر ولا يجاوز الحد الذي يطبقونه فإن جاوزه في شيء ابلغهم أن ذلك خاص به كما حدث في صوم الوصال وقال لهم ”إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني“.^(٥)

^(٣) د. عبد الرحيم علي - منهاج النبوة في الإصلاح الاجتماعي ، ص ٥٩ ، المركز القومي للإنتاج الإعلامي الخرطوم ١٩٩٨م.

^(٤) د. عبد الرحيم علي منهاج النبوة في الإصلاح الاجتماعي ص ٣٦ ، المركز القومي للإنتاج الإعلامي الخرطوم ١٩٩٨م.

^(٥) المصدر نفسه ص ٣٧.

نحن معنيون في هذا الجزء من البحث بمعالم الإصلاح الاجتماعي في سيرته ﷺ بعد وصوله إلى المدينة ، وتعد الهجرة من مكة إلى المدينة الحدث الأهم في تاريخ الإسلام ولهذا جعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بداية للتاريخ عند المسلمين ، وبعد أن وصل النبي ﷺ إلى المدينة كان أول ما بدأ به هو بناء المسجد .

(ب) بناء المسجد :

بعد مسيرة تحف بها المخاطر ، استمرت اثني عشر يوما في الصحراء وصل النبي ﷺ وصاحبه ابوبكر إلى المدينة ، وقد خرج الأنصار بسلاحهم يستقبلون هذا الركب الميمون ويعلنون نصرتهم وحبهم العميق لرسول الله ﷺ ، وقد غمرتهم فرحة عظيمة لاتوصف وكلهم يرجو أن ينزل عليه رسول الله ﷺ ضيفا - وحق لهم أن يفرحوا فقد تبدلت حياتهم بمقدم رسول الله ﷺ وكان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ هو بناء المسجد .

الهدف من بناء المسجد هو ربط الجماعة الإسلامية ربطا وثيقا وجعل النبي ﷺ حضور صلوات الجماعة دليل الإيمان ، والتخلف عنها آية النفاق فكان يقول ﷺ ” إذا رايتهم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان “.

ويقول عبدالله بن مسعود ” ولقد رايتنا ولا يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق “ . ولقد نشأ عن هذا الحضور المتكرر رابطة اجتماعية قوية تسهل التعارف وتمكنهم من تفقد المريض والمحتاج وتشجع علي تمكين التعاطف والتكافل الذي هو قوة النسيج الاجتماعي .

وكان الصحابة يتلقون القرآن غضا طريا من رسول الله ﷺ يشرح لهم ما أشكل من معاني ويبين ما خفي من أحكام وأداب .

هذا المناخ ساعد في قيام الوحدة الفكرية والنفسية ، وبقي المسجد يؤدي هذا الدور لاسيما ان خطبة الجمعة قد اضافت لقاء اسبوعيا لشرح وبيان ما يطراً خلال الاسبوع من امور وقضايا عامة .

هذه الرسالة التي توفرت بقيام أول مسجد جامع في الإسلام تؤكد أن كل إصلاح اجتماعي في التاريخ الإسلامي لابد من ارتباطه بالمسجد ، إذ فيه تنشأ حركات الإصلاح وترعرع وتقوي رابطتها ، كما ان المسجد كان ومازال ملاذا للدعوة في ظروف الإضطهاد

والفتنة ولا يزال كل إصلاح اجتماعي يناط نجاحه بحسن استعانتة بهذه المؤسسة الإسلامية العريقة.^(١٠)

(ج) المواخاة بين المهاجرين والأنصار :

بعد الهجرة اعاد النبي ﷺ صياغة المجتمع المدني علي أسس جديدة مما أضعف سلطة القبيلة التي كانت تقوم علي النصرة دون النظر للظالم والمظلوم ، ولقد جعل رسول الله ﷺ الأخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا وعملا يرتبط بالدماء والأموال ، وكانت عواطف الإيثار والمواساة تمتزج مع هذه الأخوة وحرص الأنصار علي الحفاوة والكرم باخوانهم المهاجرين فما نزل مهاجر علي أنصاري إلا بقرعة ، وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه وما نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلي العمل الحر الشريف .

ولا غرو فقد كان محمد ﷺ إنسانا تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسانية كله من أعجاب ومواهب وخبرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو أن يكون الذين قبسوا منه رجالا يحبون النجدة والوفاء والسخاء.^(١١)

المحور الثاني : الإصلاح الاجتماعي عند الإمام الغزالي^(١٢) :

كان مولد الإمام الغزالي ووفاته بين عامي ٤٥٠هـ و ٥٠٥هـ وقد كان أبوه فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويجالس العلماء ويخدمهم وكان يبكي ويتضرع إلي الله بأن يرزقه ابنا ويجعله فقيها ، ولقد استجاب الله دعوته ونشأ الغزالي محبا للعلم ، ومن طرائف طلبه للعلم عندما رجع من جرجان إلي بلده طوس وكان قد وضع ما حصل عليه من العلم في ” مخلاة “ ففُطعت عليهم الطريق واخذ العيارون جميع ما معه - يقول فتبعتهم فالتفت إلي مقدمهم ، وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت فقلت له : اسالك

(١٠) عبدالرحيم علي ، منهج النبوة في الإصلاح الاجتماعي - بتصرف ، مرجع سابق.

(١١) محمد الغزالي - فقه السيرة - ١٩٢/١٩٣ .

(١٢) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام ، فيلسوف ، متصوف ، وُلِدَ في قصبة طوس ورحل إلى نيسابور وبغداد والحجاز والشام ومصر ، له مؤلفات كثيرة أشهرها : إحياء علوم الدين ، وتهافت الفلاسفة ، والاقتصاد في الاعتقاد ، والمنقذ من الضلال .

بالذي ترجو السلامه منه أن ترد عليّ تعليقاتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به - فقال لي : وماهي تعليقاتك ؟.

قلت كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض اصحابه فسلم إلى المخلاة ، قال الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشد به أمري ، فلما وافيت طوس اقبلت علي الأشتغال ثلاث سنين حتي حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لوقطع علي الطريق لم تجرد من علمي.^(١٣)

لازم الغزال إمام الحرمين في نيسابور وكانت هي المدينة الثانية للسلجوقيين بعد بغداد. ولما مات إمام الحرمين قصد الغزالي مجلس الوزير نظام الملك ، وكان مجلس علم ومناظرة فناظر العلماء وظهر كلامه عليهم واعترفوا بفضله وولاه الوزير التدريس بالمدرسة النظامية ، ولم يتجاوز الغزالي الرابعة والثلاثين من عمره.^(١٤)

اقبل الغزالي علي دراسة الفلسفة باعتبارها الطريق الموصل إلي الحق وبعد أن سبر أغوارها تناولها بالتحليل والتقسيم وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم ومآلهم وماعليهم ، ثم قصد التصوف ، ويقول في ذلك : ” ثم أني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي علي طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم أنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وحتى يتوصل بها إلي تخليه القلب من غير الله تعالي وتحليته بذكر الله “.

كتاب إحياء علوم الدين :

خرج الغزالي من بغداد يطلب السعادة واليقين واشتغل بالعبادة والمجاهدة والإنقطاع عن الناس ومرت به أدوار من الخوف والرجاء والزهد والتبتل ، وصنف كتاب إحياء علوم الدين بعد أن تذوق هذه الأحوال فجاء الكتاب صورة لنفسيته وانطباعاته وتأملاته لذلك كان شديد التأثير علي القراء فهو يتدفق حياة وقوة ، وبين في هذا الكتاب ما فيه كل طبقة من طبقات المجتمع من أوهام وأحلام وحثهم علي التأهب للآخرة والأخذ بلباب الدين.

(١٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(١٤) المنقذ من الضلال ص ١٢٣ .

يقول في مقدمته عن العلماء : ” أدلة الطريق هم العلماء ورثة الأنبياء وقد شغل منهم الزمان وقد استحوذ علي أكثرهم الشيطان واستهواهم الطغيان واصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفا فصار يري المعروف منكرا والمنكر معروفا حتي ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى منطمسا“.

وقد قصدت بتحريـر هذا الكتاب ، إحياء علوم الدين وكشف مناهج الائمة المتقدمين وإيضاح مناحي العلوم النافعة عند الأنبياء والسلف الصالحين.^(١٥)

نظر الغزالي إلي المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة وبين ماوقع فيه من انحراف وابتعاد عن الجادة وذكر امراض الطبقات وميز بين المقاصد والغايات والوسائل والآلات ، وقسم العلوم بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية وبين العلوم المحموده والعلوم المذمومة وبين فرض العين وفرض الكفاية ، ونبه علي ماهو فرض متعين في زمانه لايسع العالم تركه ، ومافيه متسع ومندوحة وذكر العلل التي تخص الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامهم وغرورهم وانتقد الملوك والامراء بشجاعة وانكر عليهم مظالمهم واعمالهم المخالفة للشرع ، وذكر شيئا كثيرا من أمراض العامة والمنكرات الغاشية في مختلف الطبقات ، وبذلك كان هذا الكتاب موسوعة إسلامية اجتماعية وأوسع كتاب وأقواه في نقد المجتمع والدعوة إلي الإصلاح.^(١٦)

منهجه في إصلاح النفس :

تولي الغزالي التدريس في المدرسة النظامية في بغداد عام اربع وثمانين واربعمائة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وقلما تقلد هذا المنصب الرفيع عالم وهو في هذه السن. وقد اعجب الناس بحسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة.^(١٧)

وبلغت شهرته العلمية في العالم الإسلامي أوجها ووصل الرجل إلي اقصي ما يصل إليه عالم في ذلك العصر من المجد والسمو واقبل إليه الطلبة من الآفاق وخضع له العلماء والامراء

(١٥) الغزالي - إحياء علوم الدين ١/ ٣ الحلبي.

(١٦) الندوي - رجال الفكر والدعوة في الإسلام ٢٦٨ / ١.

(١٧) طبقات الشافعية الكبرى ، ص / ١٠٦.

والوزراء ، وكان بإمكانه البقاء علي هذه الحالة قرير العين رضي البال مرفوع الرأس عظيم الجاه ، ولكنه لم يفعل ذلك. ولم تسمح له نفسه القلقة وهمته القعساء بأن يستمر ذلك ، وفي هذا القلق وفي هذا التمرد سر عبقريته وسر خلوده من بين الاقران والأعيان ولذلك سمي " حجة الإسلام " وقد استطاع بقوة إرادته وصدق طلبه وعلو همته أن يضحي باكبر منصب وان ينفذ يده من كل ما يملكه من مال وأثاث ورياش وينتقل من دولة العلم التي كان يحكم فيها إلي الصحاري والخلوات التي كان يعيش فيها عيش الفقراء والغرباء.^(١٨)

لنستمع إليه وهو يحكي طرفا يسيرا من رحلته للبحث عن الحقيقة وتركية النفس بالعبادة والخلوة ، إذ يقول :

" فارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخيصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا علي المسلمين ، فلم ار في العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، اصعد منارة المسجد طوال النهار وأغلق بابها علي نفسي " .

ثم رحلت منها إلي بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها علي نفسي ، ثم تحركت في داعية فريضة الحج والإستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله e بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت إلي الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلي الوطن ، فعادوته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، فأثرت العزلة به أيضا ، حرصا علي الخلوة وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات مختلفة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها " .^(١٩)

(١٨) الغزالي ، المتقذ من الضلال ص ١٢٨ .

(١٩) الغزالي ، المتقذ من الضلال ، ص ١٢٨-١٢٩ .

نقده المجتمع والحسبة عليه :

عرف الغزالي أدواء المجتمع ومواقع الضعف والفساد فيه وكيف تغيرت المفاهيم وكيف تشاغل الناس وابتعدوا عن الحقائق والمقاصد حتي أصبح المجتمع كله ، إلا من عصم الله في شغل شاغل عن الآخرة وما ينفع فيها وما يلزم لها.

نظر الغزالي للمجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة وتناوله طبقة طبقة فذكر أمراضها ومغالطاتها وبين فرض العين وفرض الكفاية ، وبين ماهو فرض ومتعين في زمانه لايسع العالم تركه ، ومافيه متسع ومندوحة وذكر العلل التي تخص الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامهم وغرورهم وانتقد الملوك والأمراء بشجاعة وذكر شيئا كثيرا من أمراض العامة والمنكرات الغاشية في الطبقات والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية.^(٢٠)

وبذا استطاع أن يلمس ادواء المجتمع والدعوة إلى إصلاحه.

العلماء ورجال الدين :

يعتقد الغزالي أن العلماء يتحملون التبعة الكبرى في فساد المجتمع والإنحلال في الأخلاق وشبههم بملح الامة متمثلا بيت الشعر الذي يخاطبهم :

يامعشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكذلك يشبههم بالطبيب المريض الذي لايلتفت إلي علاج نفسه ويعزو الغزالي فساد الملوك والأمراء إلي ضعف العلماء واهمالهم لواجبهم. ويعلل قعودهم عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحب الدنيا والطمع فيما عند الأمراء ، فمن استولي عليه حب الدنيا لم يقدر علي الحسبة علي العامة ناهيك عن الملوك والأمراء.^(٢١)

ذلك ان التوحيد في أعلي درجاته هو أن الأمور كلها من الله عز وجل وانقطاع عن الأسباب والوسائط فإن الخير والشر كله منه جل وعلا.

يري الغزالي أن من مظاهر الفساد في عصره ، الإلتباس والبعد عن الحقائق ومن ذلك استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها وفي غير معناها الاصيل القديم وساق أمثلة علي ذلك منها :

^(٢٠) ابوالحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة ، ١/ ٢٦٩.

^(٢١) الغزالي - إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.

الفقه : فقد كان يطلق في العصر الاول علي علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلي نعيم الآخرة وإستيلاء الخوف علي القلب.

وخصص في هذا العصر ” اي الفقه “ بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوي والوقوف علي دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها.

وذكر الغزالي غير ذلك من الالفاظ التي بدلت منها لفظ العلم والتوحيد.

وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء في قوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعمق وتحليل علمي ويثير فيهم الغيرة والشعور ويستحثهم علي استعادة مركزهم في الامة وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية علي المجتمع الإسلامي والحسبة علي الحكومة والحكام والخواص والعوام معتقدا انهم حجب الزاوية في إصلاح المجتمع وبصلاحهم صلاح العالم وبفسادهم فساد العالم.^(٣٣)

الملوك والأمراء :

كان نقد السلاطين في عصر الغزالي علي سياستهم وأموالهم يعتبر مجازفة بالحياة ومغامرة تؤدي إلي الحبس والإهانة والعقوبات ولم يمنع ذلك الغزالي من نصيحهم وبيان أن الأموال التي يجمعونها حرام ، وقد أبدى رايه وجهر بالنصيحة أمام السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي الذي كان يحكم خراسان كلها.

وكذلك وجه الغزالي رسالة قوية إلي الوزير فخر الملك وفي آخرها يقول له : إعلم يا فخر الملك أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء ، فاقدرها قدرها فإنك لا تسمعها من غيري وكل من يقول غير ذلك فأعلم ان طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق ، لم يكتف الغزالي بذلك ، بل كان يبحث عن إقامة الدين واسعاد المسلمين بواسطة دولة فتية تقوم علي أساس ديني متين ، ولما سمع عن يوسف بن تاشفين صاحب مراكش وأوصافه الحميدة ، عزم علي التوجه إليه ، فلما وصل الإسكندرية بلغته وفاته فرجع عن ذلك العزم ، ولكنه التقى بعد ذلك بزعيم دولة الموحدين محمد عبدالله

^(٣٣) ابوالحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة ١ / ٢٧٥ .

بن تومرت وكان له فضل ونصيب في توجيهه إلى قيام دولة فاضلة تتمسك بالدين وتقيم القسط.^(٣٣)

ومما لاشك فيه إن الإمام الغزالي مصور بارع يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره ويصوره تصويراً دقيقاً مما يدل على ذكائه وسعة إطلاعه ودقة ملاحظته وبراعة تصويره وسلامة تفكيره.

المحور الثالث : الإصلاح الاجتماعي في نظر الإمام محمد الطاهر بن عاشور المتوفي سنة ١٤٨٤هـ - ١٨٦٨.

سبق الحديث عن الإصلاح الاجتماعي لدى الإمام الغزالي الذي عاش في القرن الخامس الهجري ونسوق الحديث الآن عن عالم عاش في القرن الثالث عشر الهجري أي بعد الإمام الغزالي بسبعة قرون. وإذا كان هناك تشابه في المنهج المتبع بين الإمامين فإن ذلك يدل على وحدة المشارب والمصادر التي استقي منها الرجلان عليها رحمة الله. يري بن عاشور أن للدين أهمية كبيرة في الإصلاح ، من إصلاح للفرد ثم الجماعة والجماعات كلها ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥٦ - ١٥٧]. وقوله تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٣]. أي صدها عن حصول العلم النافع لعبادتها للشمس فكانت بذلك الإعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري واستكمال الحضارة.^(٣٤)

ويقول ابن عاشور كذلك إن الإسلام أنتشل البشرية من الأحوال بسبب أنه دين عام لكل البشر وامتزجت فيه الشريعة بالعبادة مما جعل تنفيذ قوانينه محتاج لقيام الدولة ، وهذا ما فعله الرسول ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة.

(٣٣) وفيات الأعيان - ترجمة يوسف بن تاشفين.

(٣٤) محمد الطاهر بن عاشور ، النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٦ ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ط الثالثة ٢٠١٠ / ١٤٣١هـ.

[١] إصلاح الفرد :

يرى ابن عاشور أنَّ ظهور الإسلام ارتبط بطورين عظيمين ، الطور الأول هو الفترة المكية ، والطور الثاني هو الفترة المدنية ، وقد تركَّز إصلاح الفرد في الفترة المكية ، وكان الطور الثاني للإصلاح الاجتماعي .

أصول الإصلاح في نظر ابن عاشور :

ويرى بن عاشور ان اصول إصلاح الفرد في النظام الاجتماعي في الإسلام هي :
(أ) صلاح الاعتقاد والفهم ، ذلك أن الاعتقاد المودع في الفطرة هو الإيمان بالله خالقا ، لقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

وجاء حديث رسول الله ﷺ مؤكدا لهذا المعنى في قوله ﷺ ” بني الإسلام علي خمس شهادة ألا إله إلا الله “ .

- أما الفهم وصلاحه فدليلة قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

وقول النبي ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير ” ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ، والقلب هنا يعني العقل ، إذ أن القلب له المقدرة علي الاعتبار عن طريق البصيرة أو الاستبصار بالقلب فيما يدعم الإيمان وتتوافق هذه الطريقة مع طبيعة القلب الوجدانية “ .^(٢٥)

- أما العمل فيرتبط بالفهم والاعتقاد ويدل علي ذلك حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه ابوعمرة الثقفي : قلت يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه احدا غيرك ، قال : ” قل آمنت بالله ثم استقم “ . فإصلاح العمل هو الإستقامة .

(ب) الوازع النفساني : لا بد للمصلح ان يقيم للفضائل ما يحرسها من أن تتلاعب بها العواصف والأهواء ، وقد سمي رسول الله ﷺ ذلك بالمجاهدة فيما رواه الترمذي ” المجاهد من جاهد نفسه “ وقد روي البيهقي من حديث جابر أن رسول الله ﷺ عند

^(٢٥) محمد حسن أحمد سنادة ، د. الإنسان ونفسه من القرآن الكريم ، جدلية القلب والفؤاد والدماع والصدر ، شركة مطابع السودان المحدودة ، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ .

قوله من أحدي غزواته قال : ” رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا ما الجهاد الأكبر ، قال جهاد النفس “^(٣٧)

والدليل علي قوة الوازع النفساني ان الجاني كان يأتي بنفسه لرسول الله ﷺ ويطلب منه أن ينفذ فيه حكم الله مهما كان هذا الحكم شديدا ومثال ذلك قصة ماعز والغامدية عندما جاء ماعز واعترف بالزنا وطلب من رسول الله ﷺ أن يطهره ويقيم عليه الحد. بل إن هذه الصورة أصبحت أكمل عندما نزل قول الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]. فهذا تعزيز للواقع النفساني الفردي بايجاد وازع نفساني في الشؤون الاجتماعية.

(ج) العلم : يرى ابن عاشور أن العنصر الثالث هو العلم والحث علي اكتساب العلم تحريك للمقاصد الثلاثة ، التفكير وإصلاح العمل وإيجاد الوازع النفساني لأن بالعلم تمييز الخبيث من الطيب ، فهو عند ذلك التمييز تفكير في التمايز ثم هو دليل علي الفضائل وقائد إلي الخيرات يرشد إلي الكثير منها وحارس عن النقائص ، وبه يعرف العمل الصالح وهو عند ذلك عمل عقلي صالح وبه يكون إدراك ما في العمل من الصلاح واضحا فيكون الداعي إلي تحصيله منبعثا من النفس اختيارا والصارف عن إضراره منبعثا عن النفس كذلك وهو في هذه الحالة وازع من النفس للنفس ، فحقيقي أن شبه العلم بالنور في أنه يضيء للساثر في الظلمات وذلك مصداق لقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [التحریم : ٣٧]. وقد بين النبي ﷺ أن طلب العلم فريضة ، فقد روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ” طلب العلم فريضة علي كل مسلم “.

وقد سئل مالك عن ذلك فقال : أما علي كل الناس فلا. ولكن يلزم كل مسلم أن يتعلم ما تصح به عبادته ، مما لا يخلو عن الاحتياج إليه أحد. وقد يصل حكم طلب العلم إلي حد الوجوب علي الكفاية وذلك بمقدار ما تتوقف عليه إقامة الشريعة ومصالح الأمة بحسب مقاصد الشريعة الغراء.

^(٣٧) رواه البيهقي في كتاب الزهد بسند ضعيف.

يري ابن عاشور ان من بديع تأييد الله تعالى للإسلام أن جعل لمدة ظهوره طورين عظيمين هما :

طور إقامته ﷺ بمكة قبل الهجرة وطور ما بعد الهجرة إلى المدينة.
وقد كان الطور الاول أساسا للإصلاح الفردي وكان الطور الثاني أساسا للإصلاح الاجتماعي.

(د) نبذ العصبية : كانت الرابطة الاساسية للمجتمع هي الدين ، وقد أبقى الإسلام علي الروابط الفرعية الأخرى ، يدل علي ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣].

وأكد هذا المعني قول النبي ﷺ في حجة الوداع ” أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كللكم من آدم وآدم من تراب لا فضل لعربي علي عجمي ولا عجمي علي عربي إلا بالتقوي “^(١٧).

وقد أتاحت هجرة النبي ﷺ للمدينة بعد بيعة العقبة الثانية ، أن تنشأ هذه الجماعة المسلمة علي أساس الدين وليس علي أساس القبلية والعنصرية وسرعان ما توجه المسلمون إلى المدينة من الحبشة وغيرها ، ومدح الله الانصار في كتابه بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩]. وحرم رسول الله المدينة وجعلها مأوي للإيمان يأرز إليها وكان يقول لولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار ، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار.^(١٨)

(٢) الإخوة الإسلامية :

أيد الإسلام هذه الرابطة بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠]. وقوله ﷺ ” لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه “ ، وقوله

(١٧) ابن عاشور ، النظام الاجتماعي في الإسلام ص ١٠١ ، مرجع سابق.

(١٨) ابن هشام.

ﷺ ” مثل المسلمين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي “. ونتيجة لهذا الإخاء فقد سادت بين المسلمين صفات المواساة والمحبة والصلة والنصح وحسن المعاملة والإيثار.

وسادت مكارم الأخلاق في هذا المجتمع ويؤكد هذا المعنى حديث الموطأ ، قال مالك : إنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال ” بعثت لاتمم حسن الأخلاق “^(٢١). فالإسلام اقام شريعته علي الحقائق وليس الأوهام بيث تلك الأخلاق بين أتباعه وبيلاغها لأهل الأديان الأخرى ، وقد جعل الإتيصاف بمكارم الأخلاق حقا علي الولاية والعامّة والدعاة وفي معاملة ومعاشرة غير المسلمين في قوله تعالي ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥].

وخاطب رسوله ﷺ بقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وذكر الشيخ بن عاشور من مكارم الأخلاق العدالة والمروءة والإنصاف من النفس وذكر من أخلاق ولاية الأمور المساواة بين الناس وذكر أنها أصل عظيم من أصول الاجتماع الإسلامي ومن اقوي آثار الإخوة واصدق شواهدا وكل هذه الأخلاق تدخل في أصول نظام سياسة الأمة فإنه لما قام المجتمع الإسلامي بسبب الهجرة إلى المدينة تأصلت فيه اخوة الإسلام في مجتمع إسلامي متكامل قام علي إصلاح الفرد ثم إصلاح المجتمع ثم إصلاح ما حوله من مجتمعات ومن ثم انداح الإسلام خارج الجزيرة العربية ليلبغ القاصي والداني علي يد الصحابة والتابعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.^(٢٢)

^(٢١) رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي في السنن مرفوعاً ، وبلاغات الموطأ لها حكم الأحاديث المرفوعة.

^(٢٢) ابن عاشور ، النظام الاجتماعي ، ص ١١٤ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ٢٠١٠م.

الإصلاح الاجتماعي في مجتمعات المسلمين :

يختلف بعض الدعاة والعاملين في حقل في حقل الدعوة الإسلامية في تصنيف هذه المجتمعات فجعلها بعضهم مجتمعات إسلامية منحرفة وقال بعضهم أنها مجتمعات جاهلية لأنها لا تقيم الحكم بما أنزل الله ومن حيث اختلف الناس في التصنيف كما اختلفوا في وسائل الإصلاح. فمن ذهب إلي أنها مجتمعات جاهلية لا تقيم حدود الله ، رأي أن إصلاحها يكون بدعوته إلى الإسلام بأن تشهد إلا إلا الله وإن محمدا رسول الله ، وأن يسلك معها مسلك أهل مكة في المجتمع الجاهلي الأول . والذين يقولون هذا القول قليل وتواجههم نصوص كثيرة صريحة.

فهذه المجتمعات أكثر اهلها ينطقون بالشهادتين ويطعمون الصلاة ويرفعون الآذان في المساجد وكثيرون منهم يؤدون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت ويتبعون شريعة الإسلام في الزواج والطلاق والميراث ويستنون بالسنة في السلام وغسل الميت ودفنه وفي الختان والعقيقة وفي سائر الآداب وكثير من المعاملات إلا أن المحاكم لا تقيم شرائع الإسلام في الحدود والعقوبات. وعليه فإن افتراض هذه الجماعة ينهار بوجود هذا الواقع في كثير من البلاد الإسلامية.

أما الرأي الثاني الذي يري أن هذه المجتمعات مجتمعات إسلامية مهما اختلفت درجات انحرافها عن الإسلام ، وإن المنهج الذي يناسبها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. غير أن الدعاة يختلفون في الأولويات التي يبدأ بها الإصلاح فمنهم من يركز علي جانب العقيدة ومنهم من يركز علي الذكر والأوراد ومنهم من يولي أمر الحكم أهمية أكبر ومنهم من يري إعادة الخلافة الإسلامية أولي من غيرها.^(٣١)

والحقيقة الماثلة أمامنا أن المجتمعات الإسلامية المعاصرة ليست سواء في قربها وبعدها عن الإسلام وليست سواء في احتياجاتها ومشكلاتها ، ولهذا فإن مناهج الإصلاح يجب أن تتكامل ولا تتعارض والناجي يأخذ بيد أخيه بالحسني والموعظة والحكمة حتي ينصلح حال الإسلام والمسلمين.

ولا بُدَّ للمسلمين في عصرنا الحاضر من الاستفادة من الوسائل الحديثة في العمل الاجتماعي ، حتى يواكبوا زمانهم ولا يتخلفوا عنه ، فإنَّ الحكمة ضالة المؤمن ، أتى وجدها فهو أحق الناس بها.

(٣١) د. عبد الرحيم علي ، المرجع السابق ن ص ٨٧.

الخاتمة :

نتائج البحث :

في ختام هذا البحث أقول إن الإسلام كما تظهر آثاره في التكليف الفردية في التوحيد والعبادات والمعاملات تظهر آثاره في المجتمع في إبراز معاني الوحدة الإسلامية والإخاء والتكافل والإيثار.

إن أسس الإصلاح الاجتماعي في الإسلام تقوم علي معرفة الله سبحانه وتعالى وهذا اساس سعادة الإنسان وتقدمه ، وأن كل حضارة وتقدم لا تقوم علي أساس الإيمان بالله فهي ناقصة ولا تقود إلي سعادة الإنسان وتلبية فطرته السليمة القائمة علي العبودية لله سبحانه وتعالى.

إن أساس الإصلاح الاجتماعي في الإسلام هو المنهج النبوي الذي وضع أساسه رسول الله ﷺ في حياته الزاخرة بالعمل والجد والاجتهاد سواء كانت في مكة قبل الهجرة أو في المدينة بعد هجرته الشريفة حيث قامت دولة الإسلام ومجتمع الأخلاق والقيم والنبيل والإيثار وحسن المعاملة.

إن منهج علماء الإسلام في الإصلاح الاجتماعي متقارب يكمل بعضه بعضا وذلك بسبب وحدة المشارب التي يستقي منها العلماء وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة والنموذج العملي في السيرة النبوية التي تمثل المجال التطبيقي للقرآن والسنة.

إن منهج الإمام الغزالي في الإصلاح يظهر جليا من خلال كتابه احياء علوم الدين ، وقد سلك الإمام الغزالي سلوكا عمليا في إكتساب العلم والتقوي والصلاح وهذه قمة الصديق مع الله ومع النفس.

يعوّل الإمام الغزالي كثيرا في الإصلاح علي العلماء ودورهم في إصلاح المجتمع علي مستوي الافراد والجماعات والحكم والحكام.

يري الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي عاش في القرن الثالث عشر الهجري ، أي بعد الإمام الغزالي بسبعة قرون.

إن الإصلاح الاجتماعي يتدرج في إصلاح الفرد إلي إصلاح الجماعة وأن ذلك مرتبط بالعلم والمعرفة.

إن الإصلاح في الإسلام يربط بين الشريعة والعبادة مما جعل الإصلاح مرتبط بقيام الدولة وهذا ما فعله رسوله الله ﷺ.

يري بن عاشور ان رابطة الدين هي الاساس في المجتمع وأن الإسلام قدمها علي غيرها ولكنه أبقي علي الروابط الأخرى من روابط الدم والقربى.

يري أن الإخوة الإسلامية هي التي يقوم عليها المجتمع وهي التي أفرزت مكارم الأخلاق في مجتمعات المسلمين من العدالة والمروءة والإنصاف وأن كل هذه الأخلاق تدخل في أصول نظام سياسة الأمة وإصلاحها.

الإصلاح الاجتماعي في مجتمعات المسلمين ينطلق من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ أن هذه المجتمعات تعرضت لغزو فكري وتغريب كبيرين مما يحتم علي الدعاة تفهم الفروق القائمة بين مجتمعات المسلمين والتعامل مع كل مجتمع بالوسائل المناسبة حتي يصل إلي بر الأمان.

قائمة المراجع :

- (١) ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، دار الثقافة ، بيروت.
- (٢) ابن هشام - السيرة النبوية.
- (٣) ابوالحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٩٩٨ م.
- (٤) تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى.
- (٥) عبدالرحيم علي ، منهاج النبوة في الإصلاح الاجتماعي ، المركز القومي للإنتاج الإعلامي - الخرطوم ١٩٩٨ م.
- (٦) محمد الطاهر بن عاشور ، النظام الاجتماعي في الإسلام ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ٢٠١٠ م.
- (٧) محمد الغزالي ، أبو حامد حجة الإسلام ، المنقذ من الضلال.
- (٨) محمد الغزالي ، فقه السيرة النبوية ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ١٩٧٥ م.
- (٩) محمد الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- (١٠) محمد حسن سنادة ، الإنسان ونفسه في القرآن الكريم ، شركة مطابع السودان المحدود ٢٠١٠ م.
- (١١) مسلم بن الحجاج الأمام ، كتاب الصحيح.
- (١٢) وحيد الدين خان ، الإسلام في العصر الحديث ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، دار النفائس - بيروت - ط الثانية ١٤٠٦ هـ.